

أبو الطيب والنحاة

للاستاذ محمد محي الدين عبد الحميد

المجمع : لقد ألقى صاحب الفضيلة ممثل الجامع الأزهر في المهرجان الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد بحثه الممتع في أبي الطيب المتنبي ، نشر منه خلاصة درسه عن : « أبي الطيب والنحاة » ، وقد أبقينا كامل بحثه لسفر الذكرى .

ليس يسوغ لي في مستهل هذا البحث أن أغفل أن أبا الطيب كان قد أخذ من العربية بأوفر حظ فهو حافظ لغربها حفظ الباحث المستقصي حتى ليسأله أبو علي الفارسي « كم لنا من الجموع على وزن فعول » فيبادره بقوله « حجلى وخربنى » ويبحث أبو علي ليلته في كتب اللغة لعله يعثر لها على ثالث فلا يجد ، ويقول أبو علي في شأنه « ما رأيت رجلاً في معناه مثله » وهذه الشهادة من أبي علي الذي كان يناصبه العداوة ويتحامل عليه ، كافية للدلالة على قدره ، وكان مع اطلاعه على مفردات اللغة وغربها عالماً بمواطن استعمالها متمكناً من قواعدها خبيراً بلغات القبائل ، وله شعر جزل لا نظير له في شعر أحد من شعراء العربية ، وقد خلا كثير من شعره من كل مأخذ وتجانب كل انتقاء ، ولكن له مع ذلك شعراً قد جانب الطرق المشهورة في العربية الى طرق لا يقرها النحاة الذين جعلوا مهمتهم تتبع المعروف الجاري على الألسنة ورسموه

فواعد أرادوا أن تكون هي لسان الناس عامة ، وإن أحد قد نال من أبي الطيب في حياته وبعد موته مثالا له وجه صحيح ، وقد بقي اثره والدليل عليه فأولئك هم النخاعة ، ولستنا نعني بالنخاعة علماء الأعراب فحسب ، وإنما نريد بهم كل من كان يتكلم في فروع من فروع العربية ، فهوؤلاء هم الذين كان أبو الطيب يضيق بهم ذرعا ، وتأتلم نفسه اذا وجه واحد منهم خطابه اليه ، وكيف لا يضيق صدره وشعره هو وسيلته التي بكتسب بها رضاء الناس ، وهم يعتمدون الى هذه الوسيلة فيضعفون من شأنها ويحاولون ان يقللوا من قيمتها ، ولم يكن النخاعة فيما نعتقد قد اكثروا في تعقبه والحلمة عليه لوجه العلم بولا انتصاراً للحق ، وإنما كان ذلك منهم سلاحاً من اسلحة السياسة التي وُجِيت الى الرجل ، وليس بعيننا بحث ذلك الآن ، ولكننا نذكر انه — مع عدم توفر حسن النية — قد امكن للنخاعة ان يجدوا في شعر أبي الطيب ما يستمسكون به عليه ويتخذونه ذريعة للتشفي منه ولا رضاء سادتهم ، وكانوا يجبهونه بذلك احياناً ، وكانت تأخذه العزة فيسب وبقدح في سبابه احياناً، شأن المغنيط المحنق الذي يداخله الشك في أمرهم ، وكان ربما ضن عليهم بالإجابة فأحالمهم على بعض أصدقائه من النخاعة : حدثوا أن ابن خالويه وجه الى أبي الطيب نقداً في حضرة سيف الدولة ، فقال له أبو الطيب « اسكت ويحك فإنك أعجمي فما بالك وللعربية ، وكان مع ابن خالويه مفتاح ، فضر به به فشج رأسه ، وحدثوا أن سائلاً سأله عن قوله في مطلع قصيدة مدح بها أبا الفضل بن العميد:

بادر هواك صبرت أم لم تصبرا وبكائك إن لم يجردمك أو جرى
فقال له « كيف قلت لم تصبرا ، فقال : لو كان أبو الفتح حاضراً لأجاب ، يريد أبا الفتح عثمان بن جني وكان صديقاً حميماً له ، وبعض المأخذ التي أخذها عليه النخاعة تافه أو لا وجه له ، كالذي حدثوا أن ابن خالويه سمعه ينشد سيف الدولة :

وفاؤ كما كالربع أشجاه طاسمه بأن تسعدا والدمع أشفاه طاسمه
فقال له « يا أبا الطيب إنما يقال شجاه بتوهمه فعلاً ماضياً ، فقال له أبو الطيب : اسكت فما وصل الأمر اليك ، يعني أنه أفعل تفضيل .

وبعض المأخذ التي أخذوها عليه صحيح لا شبهة في أنه أخطأ فيه الجادة كالتعقيد اللفظي والمعنوي واستعمال الغريب الوحشي والعدول عن سنن القياس وقبح بعض

المطالع وقبح بعض المقاطع وامتثال اللغات المهجورة ، وأمثلة ذلك كله ميسورة
قريبة التناول .

وفي كتب علماء البلاغة أمثلة وشواهد كثيرة من شعر المتنبي يعدون بعضها في
عيون الشعر ومحاسنه ويعدون بعضها الآخر في رذيل الشعر ومستكرهه .

أما علماء الأعراب فقد جروا على قاعدتهم في عدم الاحتجاج بشعر المولدين مع
أبي الطيب ، ولكن كثيراً منهم من بذكر أبياتاً من شعره في موطن من ثلاثة مواطن :
موطن التمثيل لا الاستشهاد وموطن مخالفة القياس وموطن التطبيق ، وذلك في
المعقد من شعره ، وقد ذكر العلامة رضي الدين في شرح الكافية بعض أبيات المتنبي
على أنها مخالفة للقياس ، وللعلامة المحقق جمال الدين بن هشام صاحب معنى اللبيب ،
ولأبي السعادات ابن الشجري في أماليه شرح وتخرجات لأبيات كثيرة من معقد
أبيات أبي الطيب ، وقد كان لأبي الفتح عثمان بن جني صدق المتنبي اليد الطولى في
توجيه أنظارهما إلى هذه الناحية بما بذله من جهد في تخريج شعر المتنبي ، حتى كان
أبو الطيب نفسه يقول له « إني لم أقل هذا الشعر لهؤلاء النحاة وإنما أقوله لك » .

أيها السادة هذه كتي التي كتبها على عجل وإني لسعيد بأن أشرف بإلقائها
بين يديكم وأشكر لجنة المهرجان التي أتاحت لي هذه الفرصة النادرة للتعرف إليكم ،
والسلام عليكم ورحمة الله .

